



فوائد الاستعمالات اللغوية القرآنية وضوابط توظيفها

Benefits of Quranic linguistic usages and the rules for employing them

علي زواري أحمد*

جامعة الوادي (الجزائر)

zouari.ahmed.ali@univ.eloued.dz

تاريخ النشر: 15.07.2026

تاريخ القبول: 08.04.2026

تاريخ الاستلام: 25.01.2026

ملخص:

البحث عبارة عن دراسة لغوية تتعلق بالاستعمال القرآني، وقد تناولنا فيها أهم ضوابط التعامل مع الاستعمالات القرآنية، وبيننا بعض فوائد توظيف هذا الاستعمال. وقد طبقنا على بعض نماذج الاستعمالات القرآنية المتنوعة والمختلفة، ومن أهم النتائج المتوصل إليها أنّ القرآن استعمل مادته اللغوية من اللسان العربي الذي نزل به. كما أنّه يمكن تقرير حقيقة علمية تتمثل في أنّ الاستعمال القرآني مجال واسع ورحب، وجوانبه متنوعة ومختلفة، وهذه دعوة للاستثمار في هذا المجال اللغوي الخصب في مجالات الحياة المختلفة، وهذا من هداية القرآن التي هي أقوم.

الكلمات المفتاحية: الاستعمال القرآني؛ الاستعمالات القرآنية؛ التوظيف اللغوي؛ فوائد؛ ضوابط.

Abstract:

This research is a linguistic study related to Quranic usage. We address the most important controls for dealing with Quranic usages and highlight some of the benefits of employing this usage. We applied this study to various and diverse Quranic usage models. One of the most important findings is that the Quran utilized its linguistic material from the Arabic language in which it was revealed. Furthermore, a scientific fact can be established: Quranic usage is a broad and expansive field, with diverse and varied aspects. This is a call to invest in this fertile linguistic field in various aspects of life, and this is part of the Quran's guidance to the most correct path.

Keywords: usage; uses; employment; Quranic; benefits; controls; Quranic; linguistic.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

القرآن الكريم كتاب عربي فصيح، أنزله الله تعالى باللسان العربي المبين، وقد جاء ذلك في غير ما آية منه، منها قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾⁽¹⁾. بمعنى أنه على سنن العرب في أفانين القول، وما تعاهدت عليه في وضعها واستعمالاتها من غير عوج ولا انحراف عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾⁽²⁾.

ولكن عندما يقرأ الإنسان القرآن بتمعن وتفحص يلحظ بجلاء ووضوح أنه اختار من تلك اللغة التي نزل بها استعمالات خاصة، توسّع أحياناً ما عليه الاستعمال العربي، وتضيّق حيناً آخر، وتنوّع أحياناً وتتخذ صورة معينة في مواطن أخرى... إلخ، وكلّها لا تخرج عن اللسان العربي المعهود الذي نزل به. ولا يختلف أهل الاختصاص في الدراسات القرآنية واللغوية أن لتلك الاستعمالات القرآنية دلالاتها التي تتضمن فوائد كثيرة ومتنوعة، يستفيد منها كلّ متعامل مع النصّ القرآني؛ سواء في التّقعيد، أم الكتابة والتّوظيف، أم في الاستدلال والاحتجاج، كيف لا والقرآن أفصح نصّ لغويّ عربيّ وهو معجز بذلك في أقصر سورة منه؟!

كما أنّهم لم يختلفوا بأنّ للقرآن الكريم حرمة وقداسته، وأنّ التّعامل مع استعمالاته ليس أمراً عبثاً يتعاطاه الدّارس من غير آلية ولا أداة تضبط دراسته، كما أنّ التّعامل معه ليس باباً مفتوحاً يلجّه من لا علاقة له باللغة ولا بخصوصيات النصّ القرآني، من هذا كانت فكرة بحثنا حول تلكم الضّوابط التي تضبط المتعامل مع الاستعمالات القرآنية، ثمّ بيان الفوائد التي يستفيد منها المتعامل مع النصّ القرآني، لذا كان عنوان البحث: "فوائد الاستعمالات اللغوية القرآنية وضوابط توظيفها".

إشكالية البحث:

وممّا ذكرنا يمكن صياغة إشكالية البحث في سؤال رئيس مباشر، هو: ما هي أهمّ الضّوابط التي تضبط المتعامل مع الاستعمال القرآني، وما الفوائد التي يستفاد منها في توظيف هذا الاستعمال؟

منهج البحث:

في معالجة إشكالية البحث اتّبعنا المنهج الوصفيّ التحليلي الذي يتناسب ومثل هذه الدّراسات اللغوية، كما اعتمدنا على آلية الاستقرار في بعض أجزاء البحث

خطة البحث:

ولمعالجة الإشكالية المطروحة فقد تناولنا الموضوع من خلال العناصر التالية:

- معنى الاستعمال القرآني؛
- هداية القرآن لأقوم الاستعمالات اللغوية؛

(1) الشعراء: 193 – 195.

(2) الزمر: 28.

- ضوابط التعامل مع الاستعمال اللغوي القرآني؛

- فوائد توظيف الاستعمال اللغوي القرآني.

ونبدأ في تفصيل هذه المباحث.

2. معنى الاستعمال القرآني

الاستعمال القرآني مركّب وصفيّ، مكوّن من كلمتين، هما: الاستعمال: وهو اسم موصوف، والقرآني: اسم منسوب إلى قرآن وهو صفة. وما يهتّمنا هنا هو تبين لفظ "الاستعمال" وبعدها نشير للمعنى المراد من المركّب الوصفيّ "الاستعمال القرآني".

الاستعمال مصدر: استعمل، وهو في اللغة من مادّة (ع م ل)، يقال استعمل، يستعمل، استعمالاً، فهو مُستعمل، والمفعول مُستعمل⁽¹⁾. أي اسم مفعول من استعمل.

ويراد بالاستعمال في معناه اللغويّ طلب العمل وتوليته، فاستعمله: ولّاه على العمل. أو عمل به، فالأوّل مثل: أُستعمل فلان: وليّ عملاً من أعمال السّلطان. واستعمل فلان: وليّ عملاً من الأعمال، والثّاني مثل: حبل مُستعمل أي قد عمل به ومهن⁽²⁾. والمستعمل من الكلام: ما استُعمل في اللغة، نقيض المهمل⁽³⁾. فيقال شائع الاستعمال: أي مستعمل عادة أو عموماً⁽⁴⁾. بمعنى شائع ومألوف، ولذا يقال: "تعبير مستعمل". وقد يراد بالاستعمال العرف اللغويّ: بمعنى طريقة الاستعمال لعناصر لغة ما في الكلام المفيد الذي يعبر عن فكرة إنسانيّة في بيئة وزمان معيّنين⁽⁵⁾.

وأما من حيث الاصطلاح فقد جاء في كتاب الكلّيات: "والاستعمال إطلاق اللفظ وإرادة المعنى وهو من صفات المتكلّم"⁽⁶⁾.

وهو يستعمل عند القدامى فيما يقابل الوضع الذي هو من صفات الواضع، ويراد به وضع لفظ لمعنى معين فيعرف به، أو هو عبارة عن جعل اللفظ للمعنى وتعيينه له، ويقابله الاستعمال الذي يوظّف ذلكم اللفظ في معناه الذي وضع له ومعاني أخرى أوسع، وهذا ما دأب عليه علماء المعاجم حيث يذكرون اللفظ ومعناه الذي وضع له واستعمالاته المختلفة في كلام العرب.

يقول ابن خلدون مبيناً علاقة الوضع بالاستعمال: "ثمّ لما كانت العرب تضع الشّيء على العموم ثمّ تستعمل في الأمور الخاصّة ألفاظاً أخرى خاصّة بها فوق ذلك عندنا، وبين الوضع والاستعمال واحتاج إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ كما وضع الأبيض بالوضع العامّ لكلّ ما فيه بياض ثمّ اختصّ ما فيه بياض من

(1) أحمد مختار: معجم اللغة، 1554/2.

(2) ينظر نشوان الحميري: شمس العلوم، 1554/2.

(3) المرجع نفسه، 4773/7.

(4) أحمد مختار: معجم اللغة، 1554/2.

(5) المرجع نفسه، 2021/3.

(6) أبو البقاء: الكلّيات، ص: 1503.

الخيال بالأشهب ومن الإنسان بالأزهر ومن الغنم بالأملح حتّى صار استعمال الأبيض في هذه كلّها لحنا وخروجاً عن لسان العرب"⁽¹⁾.

كما أنّ الاستعمال يستعمل بمعنى عموم ما عليه عادة العرب في الكلام كما هو الحال في الألفاظ والأساليب والقواعد النحويّة وتراكيب الكلام وغيرها من أفانين القول. فللعرب استعمالات في كلّ ما ذكرنا، جاء في المعجم المفصل في اللغة والأدب لإميل يعقوب بأنّ الاستعمال هو: "دوران الكلمة أو التراكيب على الألسن، ومنهم قولهم: شاذ قياساً لا استعمالاً"⁽²⁾.

ولهذا نجد لفظ الاستعمال مشاعاً في كتب الأولين بهذا المعنى الذي ذكرناه، كما هو الحال في الزّاهر في معاني كلمات النّاس لأبي بكر الأنباريّ (المتوفّى: 328هـ) والصّحاح للجوهريّ (المتوفّى: 393هـ)، والفروق اللّغويّة لأبي هلال العسكري (المتوفّى: نحو 395هـ) والمخصّص والمحكم لابن سيّده (المتوفّى: 458هـ) وشمس العلوم للحميري (المتوفّى: 573هـ) ومختار الصّحاح للرازي (المتوفّى: 666هـ) ولسان العرب لابن منظور (المتوفّى: 711هـ) والقاموس المحيط للفيروز آبادي (المتوفّى: 817هـ) وغيرها من كتب اللّغة المختلفة. وتجد ذلك يرد في كلامهم بعبارات مختلفة، كقولهم: لكثرة الاستعمال، كثرة الاستعمال، كثير في الاستعمال، كثير الاستعمال، قليلة الاستعمال، قليل في الاستعمال، قلة الاستعمال... وغيرها من العبارات الدّالة على استخدام العرب للشيء المتحدّث عنه.

كما أنّ مصطلح الاستعمال قد يُستعمل بمعنى التّوظيف، وهذا شائع في الدّرس اللّغويّ الحديث، والدّراسات اللّغويّة الحديثة، ويستعمل أيضاً بلفظ الاستخدام وهو من المصطلحات الشّائعة في كتابات المعاصرين، ينظر على سبيل المثال معجم الصّواب اللّغويّ دليل المثقف العربي، ومعجم اللّغة العربيّة المعاصرة، وكتاب علم اللّغة العربيّة لمحمود فهمي حجازي، وغيرها، فإذا ذكروا لفظ الاستخدام فإنّما يردون الاستعمال.

والمراد بالاستخدام في البلاغة العربيّة: "هو أن يُذكر لفظ له معنيان، فيراد به أحدهما، ثمّ يراد بالضمير الرّاجع إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحد معنييه، ثمّ بالآخر معناه الآخر"⁽³⁾. فهذا تعريف مصطلح الاستخدام كمحصّن بلاغيّ من المحسّنات المعنويّة في علم البديع. ومثاله في ذكر اللفظ ويراد به أحدهما ثمّ عود الضمير على معناه الآخر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾⁽⁴⁾. فإنّ المراد به آدم عليه السلام، ثمّ أعاد الضمير عليه مراداً به ولده، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

(1) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 1/758.

(2) إميل يعقوب، المعجم المفصل، ص 92.

(3) الجرجاني: التّعريفات، ص: 21.

(4) المؤمنون: 12.

مَكِينٍ⁽¹⁾. ومعلوم أن آدم عليه السلام لم يخلق من نطفة، ولم يكن في القرار المكين الذي هو الرحم، وإنما ذريته هي التي يتحقق فيها هذا الوصف.

ومثاله في ذكر اللفظ ويراد بأحد ضميره أحد معنويه ثم بالآخر معناه الآخر، كقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾⁽²⁾. استخدم سبحانه لفظة الصلاة لمعنيين: أحدهما: إقامة الصلاة، بقرينة (حتى تعلموا) والآخر: موضع الصلاة، بقرينة (ولا جنبا) إلى آخره⁽³⁾.

وفي بحثنا هذا لا نقصد بالاستعمال (أي التوظيف والاستخدام على المشاع في عصرنا) مطلق الاستعمال في اللغة، فهذا مجاله بحث آخر، ولكن بما أن القرآن العظيم نزل باللسان العربي المبين فلا ريب أنه وظف اللغة بمجالها؛ الوضعي والاستعمالي الذين تعارفت عليهما العرب في بيئتها، وهنا يكون للقرآن استعماله الخاص به.

ولذا فإننا نقصد بالاستعمال القرآني ما شاع في لغة القرآن الكريم من استخدامات مختلفة للمفردات والقواعد والتراكيب والأساليب، وتناول للموضوعات... بحيث تشكل تلك الاستخدامات تصوّراً وترسم نهجا في النصّ القرآني، سواء كانت على معهود العرب في كلامها والقرآن نهج سبيلا منها أم ما خصّ به القرآن من استعمال للوصول لغرض مقصود، كأن يستعمل اللفظ في معنى ويستعمله مرة أخرى في معنى آخر، أو يفرق بينه وبين مرادفه في المعنى... وهكذا.

3. هداية القرآن لأقوم الاستعمالات اللغوية

القرآن العظيم. قبل كل شيء. هو كتاب هداية، أنزله الله على عبده ﷺ. ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولذا فهو كتاب يهدي الإنسان لأقوم السبل وأحسنها وأصوبها، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾⁽⁴⁾. ومعنى للتي هي أقوم، أي: إلى الطريق التي هي أصوب⁽⁵⁾. فالقرآن لا محالة أنه يرشد من اهتدى بهديه للحال التي هي أصوب الحالات. فيكون بذلك أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره⁽⁶⁾.

ففي هذا النصّ القرآني إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم. مادامت متمسكة بهديه. لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل⁽⁷⁾.

(1) المؤمنون: 13.

(2) النساء: 43.

(3) أبو البقاء: الكليات، ص: 104.

(4) الإسراء: 9.

(5) البغوي: معالم التنزيل، 123/3.

(6) أبو طالب المالكي: الهداية، 4151/6.

(7) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 40/15.

ولا ريب أنّ الاستعمالات اللغوية للقرآن الكريم من ضمن الهداية المرادة، فمن اهتدى بالاستعمال القرآني فإنه يُعصم من الانحراف والميل، ويكون كلامه على أقوم طريق بهداية القرآن الكريم، ولا مزية أنّ هذا من أنواع الهداية التي يجب أن نضعها نصب أعيننا.

ومن تلكم الهداية في هذا الجانب أنّ القرآن الكريم ذاته وجّه الأنظار للاهتمام بالكلمات ومضامينها واستعمالاتها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾⁽¹⁾.

فراعنا من الارعاء والمراعاة، وهي الحفظ. وهي كلمة بالاستعمال اليهودي تعني الشتم، فلمّا سمعت اليهود أصحاب مُحَمَّدٍ ﷺ يقولون: يا نبي الله راعنا اغتناموها، فقالوا: قد كُنّا نسبه في أنفسنا فنحن الآن قد أمكننا أن نظهر له السبّ، فجعلوا يقولون لرسول الله ﷺ: راعنا، ويضحك بعضهم إلى بعض، ففطن لها رجل من الأنصار، فقال لهم: والله لا يتكلّم بها رجل إلّا ضربت عنقه، فأُنزل الله «لا تَقُولُوا رَاعِنَا» ينهى المسلمين عَنْهَا إذ كانت سبا عند اليهود⁽²⁾.

ومعنى «وَقُولُوا انظُرْنَا» أي انتظرنا. بمعنى أَفْهِمْنَا لا تعجل علينا، أو بمعنى: أَجْرْنَا، على معنى التّأخير، وهذا توجيه صريح وواضح في استعمال كلمة انظرنا بدل كلمة راعنا، مراعاة لدلالة السياق والاستعمال القائم.

وشبيهه ما جاء في سورة الحجرات حين استعملت الأعراب كلمة آمنا بدل كلمة أسلمنا، فخاطبهم القرآن بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾⁽³⁾.

نزلت الآية في أعراب جهينة، ومزينة، وأسلم، وغفار، وأشجع، كانت منازلهم بين مكّة والمدينة، فكانوا إذا مرّت بهم سرية من سرايا النّبي ﷺ. قالوا آمنا ليأمنوا على دماءهم وأموالهم، وكان يومئذ من قال لا إله إلّا الله يأمن على نفسه وماله، فمرّ بهم خالد بن الوليد في سرية للنّبي ﷺ. فقالوا آمنا فلم يعرض لهم، ولا لأموالهم. فلمّا سار النّبي ﷺ إلى الحديبية واستنفرهم معه. فقال بعضهم لبعض: إنّ محمّداً وأصحابه أكلة رأس لأهل مكّة، وإنّهم كلّفوا شيئاً لا يرجعون عنه أبداً، فأين تذهبون تقتلون أنفسكم؟ انتظروا حتّى ننظر ما يكون من أمره. فنزلت فيهم (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا) يعني صدّقنا، فقال الله لنبيه قل لهم: يا محمّد لم تُؤْمِنُوا، أي لم تصدّقوا وَلَكِنْ قُولُوا: أَسْلَمْنَا، يعني قولوا أقرنا باللسان، واستسلمنا لتسلم لنا أموالنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ، يعني ولما يدخل التّصديق في قلوبكم⁽⁴⁾.

(1) البقرة: 104.

(2) ينظر الفراء: معاني القرآن، 1/69.

(3) الحجرات: 14.

(4) ينظر مقاتل: تفسير مقاتل، 4/98.

فمعنى الإيمان التصديق، ومعنى الإسلام الانقياد والاستسلام، وهنا نرى القرآن استعمل لفظ الإيمان بمعناه اللغوي الذي هو تصديق القلب المؤدّي للثقة والاطمئنان، وهذا لم يحصل لهؤلاء الأعراب بعد، بدليل أنهم امتنوا على الرسول ﷺ. بالإسلام وترك القتال، ولكن واقع حالهم أنهم دخلوا في السلم وترك الحرب والنطق بالشهادتين فقط، بمعنى أنه حصل منهم الاستسلام الظاهر ولم يحص منهم التصديق الداخلي المؤدّي للاستسلام الظاهري.

وهكذا نلاحظ كيف أنّ القرآن الكريم وجّه أنظار هؤلاء الأعراب للفرق في الاستعمال بين كلمة "أمنّا" و"أسلمنا"، فلمّا كان حالهم لا يتناسب ولفظ "أمنّا" أمرهم أن يستعملوا بدلها لفظ "أسلمنا" لأنّه الموافق لحقيقة أمرهم، وهذا من هداية القرآن لأقوم الاستعمالات.

ولذا نجد النّبّي ﷺ يهتدي بالاستعمال القرآني في تفسير الظلم بالشرك اعتماداً على لفظ الظلم الوارد على لسان نبي الله لقمان عليه السلام، حين قال لابنه: «يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»⁽¹⁾. فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: "لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ" ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾. بِشِرْكِ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لابنه: «يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»⁽²⁾.

وقد دلّل الإمام الرازي رحمه الله على كون الظلم الوارد في الآية المراد به الشرك وليس حقيقة الظلم المعروف عند الناس، وذلك بالاهتداء بهدي الآية من خلال استرشاده بالسّياق القرآني الذي وردت فيه، فيقول رحمه الله: "والدليل على أنّ هذا هو المراد، أنّ هذه القصّة من أولها إلى آخرها إنّما وردت في نفي الشركاء والأضداد والأنداد، وليس فيها ذكر الطّاعات والعبادات، فوجب حمل الظلم هاهنا على ذلك"⁽³⁾.

وعلى هذا يقول محمّد الطّاهر بن عاشور: "وسياق الكلام حارس من الفهم المخطئ"⁽⁴⁾. فيلاحظ القارئ أنّ الاستعمال القرآني قبل ورود الآية كان في الحديث عن الشرك، فاستلزم الأمر حمل لفظ الظلم عليه في ختام الأمر، وخاصّة أنّه ذيل الآية بلفظ الهداية التي تقابل ضلال الشرك، فقال تعالى: «أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»⁽⁵⁾. فصار المعنى لم يخلطوا إيمانهم بشرك.

يقول ابن عاشور: "وحمله على هذا المعنى هو الملائم لاستعارة اسم الخلط لهذا المعنى، لأنّ الإيمان بالله وإشراك غيره في ذلك كلاهما من جنس واحد، وهو اعتقاد الرّبوبيّة فهما متماثلان، وذلك أظهر في

(1) لقمان: 13.

(2) البخاري: الصحيح، رقم الحديث: 3360، 4/141.

(3) الرازي: مفاتيح الغيب، 13/49.

(4) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير، 1/83.

(5) الأنعام: 82.

وجه الشبه، لأنّ شأن الأجسام المتماثلة أن يكون اختلاطها أشدّ، فإنّ التشابه أقوى أحوال التشبيه عند أهل البيان. والمعنى الذين آمنوا بالله ولم يشركوا به غيره في العبادة"⁽¹⁾.

كما أنّ النبي ﷺ ارشد أصحابه للاهتمام بالاستعمال القرآني مراعاة منه للتقديم والتأخير حين أرادوا السعي بين الصفا والمروة، فبدأ بالصفا. ولم يبدأ من المروة. كون القرآن بدأ بها فقدمها على المروة، فقد جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنّه قال: >سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ حِينَ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ وَهُوَ يُرِيدُ الصَّافَا وَهُوَ يَقُولُ نَبْدًا بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ فَبَدَأَ بِالصَّافَا⁽²⁾.

وقد ترجم لذلك ابن خزيمة في صحيحه، بقوله: "باب الخروج إلى الصفا بعد استلام الركن، وصعود الصفا والمروة حتّى يرى الصّاعِدَ البيت على الصّفا والمروة، والبدء بالصّفا قبل المروة، إذ الله عزّ وجلّ بدأ بذكر الصّفا قبل ذكر المروة، وَأَمَرَ الْمُبْتَئِينَ عن الله عزّ وجلّ النَّبِيُّ المصطفى بالبدء بما بدأ الله به في الذكر"⁽³⁾.

4. ضوابط توظيف الاستعمال اللغوي القرآني

والذي ذكرناه قليل من كثير، وهو موفٍ لبيان المقصود، ومع كونه مهمّاً في بيان أهميّة الاستعمال القرآني، يمكن وضع ضوابط. لا بدّ منها. في التعامل مع هذا الاستعمال، نذكر منها بإيجاز⁽⁴⁾:

1- مراجعة المواطن القرآنية التي ورد فيها التعبير الذي يراد تبينه لئلا يستخلص المعنى المقصود. وإلا يكون الحكم جزئياً مبتوراً لا يعطي تصوّراً مكتملاً على ذلكم الاستعمال:

مثال ذلك لو أردنا معرفة الاستعمال القرآني لضمير التعظيم فإنّ الأمر يتطلّب منّا جمع جميع مواطن التعبير التي استعملها القرآن في إيراد ضمير التعظيم، حينها تظهر لنا صورة الاستعمال القرآني لهذا النوع من الضمائر.

وبعد الاستقراء والجمع نعطي ملخصاً عن ذلك، هو بمثابة النتيجة في هذا الأمر. ففي التعبير القرآني نجد أنّ الله تعالى كلّما جاء بضمير التعظيم الذي يمثله ضمير الجمع، مثل: نحن وإنا ونزلنا وأنزلنا وأرسلنا وبعثنا وأعطينا وكتبنا... إلخ إلّا وأتى في سياق ضمير العظمة قبله أو بعده ما يدلّ على الأفراد، كربك والله... أو ضمير الأفراد العائد لاسم الجلالة، وهكذا.

نموذج ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽⁵⁾. فبعد ضمائر

(1) المرجع السابق، 333/7.

(2) مالك: الموطأ، رقم الحديث: 829، 372/1.

(3) ابن خزيمة: الصحيح، 229/4.

(4) ينظر السامرائي: على طريق التفسير البياني، 14/1.

(5) النحل: 43، 44.

العظمة التي جاءت في هذه الآيات (أَرْسَلْنَا، وَأَنْزَلْنَا، نُوحِي) جاء بعدها مباشرة بالإفراد في اسم الجلالة (الله)، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾⁽¹⁾.

2- مراجعة المواطن القرآنية التي وردت فيها المفردة التي يراد تفسيرها واستعمالاتها ومعانيها ودلالاتها:

فعلى سبيل المثال، إذا أردنا معرفة استعمالات مفردتي (المثوى والمأوى) في القرآن الكريم، فإن الأمر يتطلب منا جمع جميع الآيات التي أستخدم فيها اللفظان، وبعد الاستقراء نقوم بقراءة تلك المواطن جميعاً، حينها يظهر لنا الاستعمال القرآني جلياً واضحاً في هاتين المفردتين. وبعد عملية البحث والاستقراء يمكن أن نوجز الموضوع في النقاط التالية:

فكلمة المأوى ذكرت في القرآن الكريم (36) مرة تقريباً، وقد ذكرت بصيغ مختلفة: المَأْوَى، مَأْوَيْكُمْ، مَأْوَاهُمْ، أَوَى، مَأْوَنُهُ، أَوَى، فَأَوَّاكُم، أَوْوَا، سَأَوَى، أَوَى، فَأَوَّوَا، أَوَيْنَا، أَوَيْنَاهُمَا، تُؤْوِيهِ، فَأَوَى. ويستخدم لفظ المأوى في المستقر والمآل المكين الذي يبلغه من يسعى ويجهد في الوصول إليه. وقد استخدمها القرآن في الخير والشر، واستعملها لأهل الجنة ولأهل النار في غالب الاستعمال.

وأما كلمة المثوى فقد ذكرت في القرآن الكريم (12) مرة تقريباً، وبصيغ مختلفة: المثوى، مثواه، مثواكم. ويستخدم لفظ المثوى في المستقر والمآل الذي يبلغه المرء بعد عناء ومكابدة ويصل إليه بدون تخطيط ولا سعي ولا تدبير مسبق، وقد يكون مثوى سوء أو مثوى راحة وكرامة. وقد استخدم القرآن لفظ المثوى في الخير والشر، وأكثر استعمالها كان في أهل النار ولم يستعملها لأهل الجنة.

3- أن نعلم أن هناك خصوصيات في الاستعمال القرآني، كاستعمال لفظ الظلم للشرك في الآية السابقة الذكر. فالنص القرآني له خصوصياته التي ترتبط به وبمصطلحاته واستعمالاته التي لا يمكن تجاهلها ولا تغافلها ولا تجاوزها في بيان الدلالة القرآنية، والتي منها:

أسباب النزول، وبيان القرآن للقرآن، والبيان النبوي للقرآن،... وعلة ذلك أن النص القرآني نص موحى يراد منه الهداية أولاً وآخراً، ويحمل مع ذلك من الغيبات والأخبار، والتشريعات والأحكام، كما أن فيه من المحكمات والمتشابهات، وفيه نصوص قطعيات وأخرى من الظنات، وغيرها من الأمور والقضايا التي تخضع لخصوصيات الوحي الكريم.

فمن المعلوم عند الدارسين للغة القرآن الكريم أن الله تعالى استخدم في القرآن بعض التركيبات بصيغة خاصة، كما استخدم بعض الكلمات على معاني معينة، أي وظفها القرآن بمعاني معينة مع أن

(1) النحل: 45.

توظيفها في اللغة أوسع من ذلك، وهذا حريّ بأن يوجّه دلالات التراكيب والكلمات من خلال الاستعمال القرآني، وقد تترجّع دلالة على أخرى من خلال ذلك.

مثال ذلك أنّ القرآن الكريم في استعمالاته لم يستعمل الاستفهام التّقريري بـ (ما) قطّ، بل استعمل (لم) لذلك⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾⁽²⁾. وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾⁽³⁾. وقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾⁽⁴⁾.

كما أنّه لم يرد جواب (لو) منفيّا بـ (لم)، بل بـ (ما) فقط⁽⁵⁾، قال تعالى: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾⁽⁶⁾. وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ﴾⁽⁷⁾. وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾⁽⁸⁾. وقال: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾⁽⁹⁾. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾⁽¹⁰⁾.

وأيضاً لم تقع (ما) النافية بعد الأسماء الموصولة، أي في صدر الصّلة، وقد وقع غيرها من أدوات النّفي، مثل (لم) و(لا) و(ليس)⁽¹¹⁾، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾⁽¹²⁾.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾⁽¹³⁾. وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾⁽¹⁴⁾.

4- النّظر في السّياق، فبه تتّضح المعاني ويظهر سبب اختيار لفظة على أخرى وتعبير على آخر، وبه يظهر سبب التّقديم والتّأخير، والدّكر والحذف والاشتراك وغيره:

فمثال ذلك سياق قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾⁽¹⁵⁾. يختلف عن سياق قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾⁽¹⁶⁾. وسياق قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾

(1) السّامرائي: معاني النّحو، 198/4.

(2) الأنعام: 130.

(3) الانشراح: 1.

(4) الشعراء: 18.

(5) السّامرائي: معاني النّحو، 198/4.

(6) فاطر: 14.

(7) البقرة: 253.

(8) البقرة: 253.

(9) آل عمران: 168.

(10) النّساء: 66.

(11) السّامرائي: معاني النّحو، 198/4.

(12) البقرة: 151.

(13) الأنعام: 150.

(14) هود: 16.

(15) يس: 20.

(16) القصص: 20.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ⁽¹⁾. تختلف عن قوله تعالى: «وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»⁽²⁾ وهناك الكثير من الكلمات في النَّصِّ القرآنيّ الفیصل في دلالاتها هو السَّیاق الذي وردت فيه، فهو الذي يحدّد معناها، سواء أكان المعنى الوضعي أم المعنى المجازي. يقول أحمد مختار عمر: "دراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتّى ما كان منها غير لغويّ، ومعنى الكلمة. على هذا. يتعدّل تبعاً لتعدد السياقات التي تقع فيها، أو بعبارة أخرى تبعاً لتوزيعها اللّغويّ"⁽³⁾.

ونختم هذا العنصر بما قاله الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي: "إنّ التعبير القرآنيّ تعبير فيّ مقصود، كلّ لفظة بل كلّ حرف فيه وُضِعَ وضعا فنيّاً مقصوداً، ولم تُراعَ في هذا الوضع الآية وحدها ولا السّورة وحدها بل رُوعيَ في هذا الوضع التعبير القرآنيّ كلّهُ"⁽⁴⁾.

5. فوائد توظيف الاستعمال اللّغويّ القرآنيّ

لا ريب أنّ للاستعمال القرآنيّ فوائد كثيرة يستفيد منها المسترشد بهذا الهدي المعجز، ومن خلال تتبّعي وقراءتي للاستعمالات القرآنيّة فقد بدا لي منها ما يلي:

1- فهم مراد الله تعالى من خلال الاستعمال القرآنيّ: فكما أنّ اللفظ والسَّیاق والتَّركيب تحمل دلالات فإنّ التَّوظيف القرآنيّ لتلك الاستعمالات في النَّصِّ القرآنيّ يحمل في ذاته دلالة أولية يكون لها أثرها على أيّ نصّ قرآنيّ استعملت فيه، وقد عمد المفسرون لتفسير القرآن بالقرآن لأنّه أبين في إظهار المعنى، فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً ولا يمكن أن يختلف أو يتضارب مطلقاً: يقول ابن القيم. منوهاً بمراعاة الاستعمال القرآنيّ لفهم معاني الآيات القرآنيّة: "للقرآن عرف خاصّ ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه، فإنّ نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، فكما أنّ ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلّها وأفصحها ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجلّ المعاني وأعظمها وأفخمها فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به، بل غيرها أعظم منها وأجلّ وأفخم، فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النّحويّ الإعرابيّ فتدبّر هذه القاعدة ولتكن منك على بال"⁽⁵⁾.

2- أنّ الاستعمال القرآنيّ يوجّه لحسن تطبيق النَّصِّ القرآنيّ من خلال الاستعمالات الواردة في الشَّيء الواحد: كما هو الحال في لفظ المرأة والزّوج (الزّوجة)، ولفظ الأبوين والوالدين، فقد جاءت

(1) النحل: 14.

(2) فاطر: 12.

(3) مختار عمر: علم الدلالة، ص: 68.

(4) السامرائي: التعبير القرآنيّ، ص: 13.

(5) ابن قَيِّم: بدائع الفوائد، 877/3.

نصوص قرآنية كثيرة في كلّ لفظين، لكن كلّ استعمال له معناه الذي يختلف عن الآخر في الاستعمال القرآني، فلفظ المرأة استعملها القرآن في معنى ولفظ الزوج في معنى آخر، ونفس الشيء مع لفظ الوالدين ولفظ الأبوين.

ولا يخفى علينا أنّ ضابط ذلك هو المعنى الذي نستثمره وفق ما استعمله عليه النصّ القرآني، ومثل هذا يوجّه الشاطبيّ كلامه قائلا: "أن يكون الاعتناء بالمعاني المباشرة في الخطاب هو المقصود الأعظم، بناء على أنّ العرب إنّما كانت عنايتها بالمعاني، وإنّما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنّما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود، ولا أيضا كلّ المعاني، فإنّ المعنى الإفرادي قد لا يعبأ به، إذا كان المعنى التركيبي مفهوماً دونه، كما لم يعبأ ذو الرمة "ببائس" ولا "يابس" اتكالا منه على أنّ حاصل المعنى مفهوم"⁽¹⁾.

ونعطي هنا مثالا يتعلّق بالاستعمال التركيبي فيه تكليف شرعيّ، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾⁽²⁾. ففي هذا النصّ القرآنيّ نلاحظ أسلوباً من أساليب الاستعمال القرآنيّ، ويحمل هذا الأسلوب حكماً شرعياً يتعلّق بقضايا الأحوال الشخصية التي تخصّ الأسرة، ويتمثّل الحكم الشرعيّ في القيام بعدّة الطلاق، بأن لا تزوّج المطلقة حتّى تنتهي العدة، أي إذا طلقت المرأة فعليها أن تنتظر ثلاث حيض بعد الطلاق ثمّ بعدها إن شاءت تزوّجت، ولكن النصّ دلّل على هذا الحكم بأسلوب بلاغيّ أبلغ في الدلالة من مجرد الأمر المباشر الصريح (ليتربصن)، حيث انتقلت به تلك الصيغة المستعمل بها لدلالات أخرى تضيف عليه بعداً آخر؛ وهو الاتيان بالفعل مُزامناً للأمر مع الاتيان به بعده، وهذا لا يمكن أن يكون بالأمر المجرد الصريح، لأنّه لا يحمل إلّا دلالة الاتيان به لاحقاً.

بيان ذلك أنّ الاستعمال القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ ورد في سياق الكلام بأسلوب الخبر بدل أسلوب الإنشاء الذي يمثله الأمر، وهذا من المجاز المرسل في اللفظ المركّب، الذي هو أبلغ من مجرد الأمر الصريح، فأصل الكلام (وليتربصن المطلقات) وهو يفيد طلب الفعل في المستقبل لا في الماضي، أمّا بأسلوب الخبر فكأنّه حاصل زمن الإخبار ومطالب به بعده، يقول الزمخشري: "إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنّه ممّا يجب أن يُتلقّى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنّهنّ امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً... وبنائوه على المبتدأ ممّا زاده أيضاً فضله تأكيد"⁽³⁾.

(1) الشاطبي: الموافقات، 2/138.

(2) البقرة: 228.

(3) الزمخشري: الكشاف، 1/270.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾⁽¹⁾. أمر أخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيقه، أي ليرضعن كالأية السابقة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾⁽²⁾. وهذا من المجاز المرسل في اللفظ المركب أيضا.

فحسن تطبيق النص القرآني بسبب الاستعمال الوارد فيه يدفعنا أن نحسن الظن بالمرضع والمتربصة، وأنهما يحتاجان للملاطفة والعون والحرص على توفير الجو المناسب لهما، فبفطرتهما يطبقان هذا الأمر وكأنه جبلة طبعها عليها فلا يحتاجان لقوة إلزام (ليتربصن، ليرضعن) بل يكفي فيهما مجرد التنبيه عن طريق الإخبار كتذكير لا غير، كون الخبر في أصله لا يحمل أمرا لكن استعمال مجازا للدلالة عليه.

3- الاستفادة من الاستعمال القرآني في توظيف الألفاظ والأساليب والتراكيب البليغة كما وظفها القرآن الكريم: فهو أسلم في التعبير، وأدق في توصيل المعنى، وأجود في اختيار اللفظ، كاستعمال لفظ الريح في الشر، واستعمال لفظ الرياح في الخير، واستعمال لفظ المطر في الهلاك والانتقام ولفظ الغيث في الرحمة والانعام، ولفظ الجوع في الأمور العظام كال فقر وغيره واستعمل لفظ العيون لعيون الماء، والأعين للجراحة أي العين الباصرة، واستعمل كلمة وصى في الدين والأمور المعنوية، وأوصى في الأمور المادية ولم ترد في الأمور المعنوية إلا في موطن واحد اقترنت فيه بأمر مادي⁽³⁾، وكذلك استعمال لفظ يشاقق من غير إدغام إلا وذكر الرسول معها، وإذا استعمل يشاقق يذكر الله معها، ولفظ الصوم استعمله القرآن ويراد به الصمت والصيام استعمله ويراد به الفريضة... الخ.

يقول الجاحظ في كتابه، "البيان والتبيين": "وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحقّ بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السَّغب، ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في مواضع الانتقام. والعامة وأكثر الناس لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماك. وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السَّمع أسماكاً. والجاري على أفواه العامة غير ذلك: لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحقّ بالذكر، وأولى بالاستعمال... والعامة ربّما استخفت أقلّ اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقلّ في أصل اللغة استعمالاً وتدع ما هو أظهر وأكثر، ولذلك صرنا نجد البيت من الشَّعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه، وكذلك المثل السائر"⁽³⁾.

(1) البقرة: 233.

(2) البقرة: 228.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين، 41/1.

4 - الاستعمال القرآني يفيد في توجيه دلالات الأحكام بل له أثر في بناء الحكم واستنباطه من

النص القرآني: من ذلك ما جاء في المدونة على أن من حلف أن لا يأكل لحما وأكل سمكا فقد حنث لأن القرآن استعمل لفظ اللحم لما يُستخرج من البحر، وبهذا استدل مالك رحمته.

ففي المدونة: "قلت: رأيت إن قال: والله لا آكل لحما ولا نية له فأكل حيتانا. قال: بلغني عن مالك أنه قال: هو حانث لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾⁽¹⁾. قال مالك: إلا أن يكون له نية فله ما نوى"⁽²⁾.

ونفس الشيء على من حلف أن لا يسكن بيتا، فسكن خيمة، أو كان من أهل البادية وسكن قصرا فإنه يحنث لكون القرآن استعمل لفظ البيت في كل ذلك، جاء في المدونة: "الرجل يحلف أن لا يدخل بيتا أو لا يسكن بيتا، قلت: رأيت إن قال: والله لا أسكن بيتا ولا نية له وهو من أهل القرى أو من أهل الحاضرة فسكن بيتا من بيوت الشعر أتراه حانثا في قول مالك؟ قال: لم أسمع من مالك فيه شيئا إلا أنه إن لم تكن له نية فهو حانث لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾⁽³⁾. فقد سماها الله بيوتا"⁽⁴⁾.

كما نجد مالكا رحمته يراعي الاستعمال القرآني في تفسيره وبيان بعض ما ورد في القرآن الكريم من ألفاظ، مثال ذلك تفسيره للفظ السعي المستعمل في سورة الجمعة من الآية التاسعة على أنه لا يراد به المشي على الأقدام بل يراد به العمل والفعل.

جاء في الموطأ حدثني يحيى عن مالك أنه سأل ابن شهاب عن قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽⁵⁾، فقال ابن شهاب: كان عمر بن الخطاب يقرأها (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ) فامضوا إلى ذكر الله، قال مالك: وإنما السعي في كتاب الله العمل والفعل يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾⁽⁶⁾، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى﴾⁽⁷⁾، وقال: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾⁽⁸⁾، وقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾⁽⁹⁾، قال مالك فليس السعي الذي ذكر الله في كتابه بالسعي على الأقدام ولا الاشتداد وإنما عني العمل والفعل⁽¹⁰⁾.

(1) النحل: 14.

(2) مالك: المدونة، 601/1.

(3) النحل: 80.

(4) المرجع السابق، 604/1.

(5) الجمعة: 9.

(6) البقرة: 205.

(7) عبس: 8 - 9.

(8) النازعات: 22.

(9) الليل: 4.

(10) مالك: الموطأ، 106/1.

5- الاستعمال القرآني يمكن أن يكون علما مستقلاً بذاته تستفيد منه كل العلوم الأخرى: كعلم التفسير وعلوم القرآن، ومختلف علوم اللغة، وعلم أصول الفقه، بل حتى العلوم الأخرى التي لا تحسب على العلوم الشرعية، كعلم التغذية والبيئة والاجتماع وعلم النفس وغيرها، وهذا ميدان رحب واسع يمكن أن تشتغل عليه الأبحاث في الميادين المختلفة ويكون له نفع كبير ويعطي فهما آخر لتزليل نصوص القرآن على واقع الناس.

جاء في كتاب النبأ العظيم: "فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحماً بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين. لا يوماً أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يبغي عن منزله جَوْلاً.. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان.

هذا مطلب له دليله، وإجمال له تفصيله، وليس من قصدنا أن نعجلك الآن بالبحث في أدلته وتفصيله، وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة لتعلم أن ليس كل كلام عربيّ ككل كلام عربيّ، وأن هذه الناحية اللغوية جديرة بأن تتفاوت فيها القوى نازلة إلى حدّ العجز، أو صاعدة إلى حد الإعجاز. فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقه وبلوغه الغاية في هذا المضمار وأنت بعد لم تُرزق قوة الفصل بين درجات الكلام فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن حس وخبرة، وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه مسلماً عن أهله وتقنع فيه بشهادة العارفين به"⁽¹⁾.

6 - كما أنّ من فوائد الاستعمال القرآني أن نعطي كل موضوع قدره من الاهتمام بقدر ما أعطاه القرآن في الاستعمال: وهو نوع من الهدى القرآن الذي يعتبر بمثابة البوصلة التي تحمي الإنسان من الطغيان في الاهتمام، فيقدّم ما حقّه التقديم، ويهتّم أكثر بما حقّه الاهتمام، وبهذا المنهج لن يحيد الإنسان أبداً.

ولعلي بهذا الصدد. ومن خلال تتبّعي للاستعمال القرآني. نعطي موضوعاً أعطاه القرآن من الأهمية بحيث تكاد تكون كل سور القرآن تتحدّث عنه، وخاصة السور الطوال والسور المتوسطة الطول، ألا وهو موضوع الأسرة، الذي شغل حيّزاً كبيراً في الاستعمال القرآني، ويصلح أن يكون بحثاً كثيرة مستقلة. وأنا لا أتكلم عنه من حيث الأحكام الشرعية المتعلقة بالأسرة، وإنما نذكر ما ذكره القرآن من نماذج أسرية وما يكتنفها من ظواهر يسترشد بها الإنسان في معالجة القضايا الأسرية.

(1) عبد الله دزاز: النبأ العظيم، ص: 121.

لقد عرض علينا القرآن الكريم نماذج وصور متعدد للأسرة، وهذه الصور ممّا يسترعي الانتباه ويدعو للتأمل، فكلّ نموذج فيه عبرة خاصّة نستفيد منها في حياتنا الأسرية، وهي نماذج كثيرة نقف عندها باختصار.

أسرة نبينا محمد ﷺ، أسرة آدم، أسرة يعقوب، أسرة نوح، أسرة لوط، أسرة إبراهيم، أسرة داود، أسرة شعيب، أسرة موسى، أسرة آل عمران، أسرة زكريا، أسرة الأخوين أصحاب الجنتين، أسرة الإخوة أصحاب الجنة، أسرة أصحاب الجدار، أسرة الغلام المقتول، أسرة فرعون.. إلخ، فالقرآن يحكي هذه النماذج الأسرية لأنها تعبر عن واقع، ولكل أسرة منها عبر ودلالات، وهذا هو أسلوب القرآن في تربية النفوس وإصلاح الخلل والحثّ على المطلوب.

يقول الشيخ يوسف القرضاوي رحمه الله: "فما عني القرآن بذكره من المعاني والموضوعات، وجعله في بؤرة اهتمامه، وكرر الحديث عنه، بصورة وأخرى، وبأسلوب وآخر، يجب أن يأخذ من عنايتنا واهتماماتنا المكان اللائق به في الفكر والشعور والسلوك، وأن يكون لذلك أثره العملي في ميادين التثقف والتربية والتشريع، اقتداء بالقرآن. وما كانت عناية القرآن به أقل، كانت عنايتنا به في نفس الدرجة. فهذا. في رأيي. معيار لا يضل ولا يخطئ.

فالأمر الذي يُعنى به القرآن الكريم. بحيث يكرّره ويؤكدّه في أكثر من سورة وأكثر من مناسبة، وبأكثر من أسلوب - يدلّ أنّ له أهميّة ومنزلة وأثرا في الدّين والحياة، توجب الالتفات إليه، والتّنبه عليه، وإعطائه حقّه من التأمّل والعناية الفكرية والعاطفية والعلمية، وعلى قدر حجمه في القرآن. والأمر الذي يهمله القرآن تماما، ولا يذكره بحال في مكّيه ولا مدنيه، دليل على أنّه ليس من مقومات الدّين، ولا أساسياته، لأنّ القرآن قد حوى كلّ ما يتعلّق بأساسيات الدّين، بل فصلّ في بعضها تفصيلا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾⁽¹⁾ (2). فهذه بعض فوائد الاستعمال القرآني ولا ريب أنّ هناك غيرها، وحسبنا ما ذكرنا للدّلالة عليها.

6. الخاتمة

وفي خاتمة هذا البحث يمكن تقرير بعض التّنتائج المتوصّلة إليها، والتي منها:

- أنّ القرآن العظيم كتاب أنزله الله بلسان عربيّ مبين، ومن هذا اللّسان العربيّ استعمل القرآن مادّته اللّغويّة، فاختار منها ما هو على عرف الاستعمالات العربيّة، واستفرد القرآن ببعض الاستعمالات الخاصّة به، والتي في مجملها لا تخرج عن اللّسان العربيّ الذي نزل به.

(1) النحل: 89.

(2) يوسف عبد الله القرضاوي (المتوفى: 1444هـ): كيف نتعامل مع القرآن العظيم، دار الشروق، القاهرة، الطّبعة الثّالثة، 1421هـ - 2000م، ص: 451.

- كما أنه من خلال هذه الدراسة يمكن تقرير حقيقة علمية تتمثل في أن الاستعمال القرآني مجال واسع ورحب، وجوانبه متنوعة ومختلفة، تدخل فيه المفردة، والموضوعات، والقواعد النحوية والصرفية، والأساليب البلاغية، والتركيبات اللغوية، والسياقات النصية، وغيرها من الجوانب اللغوية، وما تناولناه في البحث إنما هو قطرة من بحر زاخر.
- وعلى ذلك فإن البحث دعوة للاستثمار في هذا المجال اللغوي الخصب، الذي هو من كنوز القرآن العظيم، ونحن نعلم أن الجهود كثيرة. قديما وحديثا. في استقراء وبيان بعض الجوانب اللغوية في القرآن، وخاصة ما يتعلق منها بالمفردة وتوظيفاتها المتنوعة، ومثل هذه الجهود يمكن الاستفادة منها في توسيع البحث في هذا الجانب المهم، واستثمار ذلك في مجالات الحياة المختلفة، وهذا من هداية القرآن للتي هي أقوم، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

7. قائمة المراجع

- أحمد مختار، عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ): معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429هـ.
- أحمد مختار، عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ): علم الدلالة، عالم الكتب - القاهرة، الطبعة الخامسة: 1998 2008م.
- أيوب بن موسى، أبو البقاء الحسيني: الكلّيات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت - 1419هـ - 1998م.
- إبراهيم بن موسى، الشاطبي (المتوفى: 790هـ): الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى 1417هـ/1997م.
- إميل، بديع يعقوب، ميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: أيلول (سبتمبر) 1987.
- البغوي، أبو محمد (المتوفى: 510هـ): معالم التنزيل في تفسير القرآن، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، -بيروت، الطبعة: الأولى، 1420هـ.
- عبد الرحمن، ابن خلدون (المتوفى: 808هـ): تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت الطبعة: الثانية، 1408هـ - 1988م.
- عبد الرحمن، بن ناصر السعدي (المتوفى: 1376هـ): تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ - 2000م.

- علي بن محمد، الجرجاني (المتوفى: 816هـ): التّعريفات، المحقق: ضبطه وصحّحه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ - 1983م.
- عمرو بن بحر، الجاحظ (المتوفى: 255هـ): البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: 1423هـ.
- فخر الدين، الرازي (المتوفى: 606هـ): مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420هـ.
- الفراء، أبي زكريا (المتوفى: 207هـ): معاني القرآن، المحقق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، الطبعة: الأولى، ج 1.
- فاضل، صالح السامرائي: التعبير القرآني، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، 1439هـ - 2018م.
- فاضل، صالح السامرائي: على طريق التفسير البياني، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الأولى: 1438هـ - 2017م.
- فاضل، صالح السامرائي: معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن، الطبعة: الأولى، 1420هـ - 2000م.
- نشوان، بن سعيد الحميري (المتوفى: 573هـ): شمس العلوم، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة: الأولى، 1420هـ - 1999م.
- محمد، الطاهر بن عاشور (المتوفى: 1393هـ): التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: 1984هـ.
- محمد، بن أبي بكر ابن قسيم الجوزية (المتوفى: 751هـ): بدائع الفوائد، المحقق: علي بن محمد العمران (إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1425هـ).
- محمد، بن عبد الله دراز (المتوفى: 1377هـ): النبأ العظيم، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، طبعة مزيّدة ومحقّقة 1426هـ - 2005م.
- مالك، بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ): المدونة، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1415هـ - 1994م.
- مقاتل، بن سليمان أبو الحسن (المتوفى: 150هـ): تفسير مقاتل، المحقق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، الطبعة: الأولى - 1423هـ.
- مكي، بن أبي طالب المالكي (المتوفى: 437هـ): الهداية إلى بلوغ النهاية، جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، 1429هـ - 2008م.

- يوسف، عبد الله القرضاوي (المتوفى: 1444هـ): كيف نتعامل مع القرآن العظيم، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1421هـ – 2000م.

8. Bibliography List

- al-Baghawī, Abū Muḥammad (d. 510 AH). Ma‘ālim al-Tanzīl fī Tafsīr al-Qur’ān. Edited by ‘Abd al-Razzāq al-Mahdī, Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī, Beirut, 1st ed., 1420 AH.
- al-Farrā’, Abū Zakariyyā’ (d. 207 AH). Ma‘ānī al-Qur’ān. Edited by Aḥmad Yūsuf al-Najāṭī, Muḥammad ‘Alī al-Najjār, and ‘Abd al-Fattāḥ Ismā‘īl al-Shalabī, Dār al-Miṣriyyah lil-Ta’līf wa al-Tarjamah, Egypt, 1st ed., vol. 1.
- al-Ḥimyarī, Nashwān b. Sa‘īd (d. 573 AH). Shams al-‘Ulūm. Edited by Ḥusayn b. ‘Abd Allāh al-‘Umrī, Dār al-Fikr al-Mu‘āṣir, Beirut; Dār al-Fikr, Damascus, 1st ed., 1420 AH/1999.
- al-Ḥusaynī, Ayyūb b. Mūsā Abū al-Baqā’. Al-Kulliyyāt (A Dictionary of Terms and Linguistic Distinctions). Edited by ‘Adnān Darwīsh and Muḥammad al-Miṣrī, Mu’assasat al-Risālah, Beirut, 1419 AH/1998.
- al-Jāḥiẓ, ‘Amr b. Baḥr (d. 255 AH). Al-Bayān wa al-Tabyīn. Dār wa Maktabat al-Hilāl, Beirut, 1423 AH.
- al-Jurjānī, ‘Alī b. Muḥammad (d. 816 AH). Al-Ta’rīfāt. Revised and verified by a group of scholars under the supervision of the publisher, Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, Beirut, 1st ed., 1403 AH/1983.
- al-Qaraḍāwī, Yūsuf ‘Abd Allāh (d. 1444 AH). How We Should Deal with the Noble Qur’ān. Dār al-Shurūq, Cairo, 3rd ed., 1421 AH/2000.
- al-Rāzī, Fakhr al-Dīn (d. 606 AH). Maḥāṭib al-Ghayb (al-Tafsīr al-Kabīr). Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī, Beirut, 3rd ed., 1420 AH.
- al-Sa’dī, ‘Abd al-Raḥmān b. Nāṣir (d. 1376 AH). Taysīr al-Karīm al-Raḥmān fī Tafsīr Kalām al-Mannān. Edited by ‘Abd al-Raḥmān al-Luwayḥiq, Mu’assasat al-Risālah, 1st ed., 1420 AH/2000.
- al-Sāmarrā’ī, Fāḍil Ṣāliḥ. On the Path of Rhetorical (Bayānī) Tafsīr. Dār Ibn Kathīr, Beirut, 1st ed., 1438 AH/2017.
- al-Sāmarrā’ī, Fāḍil Ṣāliḥ. Qur’ānic Expression. Dār Ibn Kathīr, Beirut, 3rd ed., 1439 AH/2018.
- al-Sāmarrā’ī, Fāḍil Ṣāliḥ. The Meanings of Grammar. Dār al-Fikr for Printing, Publishing and Distribution, Jordan, 1st ed., 1420 AH/2000.

- al-Shāṭibī, Ibrāhīm b. Mūsā (d. 790 AH). Al-Muwāfaqāt. Edited by Abū 'Ubaydah Mashhūr b. Ḥasan Āl Salmān, Dār Ibn 'Affān, 1st ed., 1417 AH/1997.
- Darrāz, Muḥammad b. 'Abd Allāh (d. 1377 AH). Al-Naba' al-'Azīm. Edited by Aḥmad Muṣṭafā Faḍliyyah, foreword by Prof. 'Abd al-'Azīm Ibrāhīm al-Muṭ'inī, Dār al-Qalam for Publishing and Distribution, revised and expanded ed., 1426 AH/2005.
- Ibn 'Āshūr, Muḥammad al-Ṭāhir (d. 1393 AH). Al-Taḥrīr wa al-Tanwīr. Tunisian Publishing House, Tunis, 1984.
- Ibn Khaldūn, 'Abd al-Raḥmān (d. 808 AH). Tārīkh Ibn Khaldūn (Dīwān al-Mubtada' wa al-Khabar fī Tārīkh al-'Arab wa al-Barbar). Edited by Khalīl Shaḥādah, Dār al-Fikr, Beirut, 2nd ed., 1408 AH/1988.
- Ibn Qayyim al-Jawziyyah, Muḥammad b. Abī Bakr (d. 751 AH). Badā'i' al-Fawā'id. Edited by 'Alī b. Muḥammad al-'Imrān (supervised by Bakr b. 'Abd Allāh Abū Zayd), Dār 'Ālam al-Fawā'id, Mecca, 1st ed., 1425 AH.
- Makkī b. Abī Ṭālib al-Mālikī (d. 437 AH). Al-Hidāyah ilā Bulūgh al-Nihāyah. University of Sharjah, 1st ed., 1429 AH/2008.
- Mālik b. Anas b. Mālik al-Aṣbahī al-Madanī (d. 179 AH). Al-Mudawwanah. Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st ed., 1415 AH/1994.
- Muqātil b. Sulaymān, Abū al-Ḥasan (d. 150 AH). Tafsīr Muqātil b. Sulaymān. Edited by 'Abd Allāh Maḥmūd Shaḥātah, Dār Ihya' al-Turāth, Beirut, 1st ed., 1423 AH.
- 'Umar, Aḥmad Mukhtār (d. 1424 AH). Semantics. 'Ālam al-Kutub, Cairo, 5th ed., 1998/2008.
- 'Umar, Aḥmad Mukhtār 'Abd al-Ḥamīd (d. 1424 AH). A Dictionary of Contemporary Arabic Language. 'Ālam al-Kutub, 1st ed., 1429 AH.
- Ya'qūb, Imīl Badī' & 'Āṣī, Mīshāl. The Comprehensive Dictionary of Language and Literature. Dār al-'Ilm lil-Malāyīn, Beirut, 1st ed., September 1987.